وطنٌ ليس وطناً

أدونيس

- ١ -

«من أنا؟»، سؤالٌ ليس جديداً. وأستعيده هنا للتوكيد، بخاصة، على السؤال الذي يقترن به ضمنياً وهو: «ما عملي؟»، أو «ما مشروعي؟»، فكلّ محاولة للجواب عن السؤال الأول، لا بد لها، لكي تكتسب معناها، من أن تتمّ في ضوء السؤال الثاني.

يدور الأول حول تحديد «الذات» ـ نشأةً، وانتماءً.

ويدور الثاني حول تحديدها ـ عملاً، وصيرورة.

الأول يكشف عمّا هو «طبيعي» و «مُعطًى»، دون أي خيار أو تدخل أو إرادة من الذات.

ويكشف الثاني عما هو «مكتسب»، عما هو «خلق»، وإذن عما هو «إشكالي»، يقوم على اختيار الذات، وتدخلها، وإرادتها.

يبقى تحديد الذات، في حدود السؤال الأول، «أولياً»: إلتصاقاً بالطبيعة، وبالمعطى، شأن بقيّة الكائنات الحية. غير أن الذات تنفصل عنها، خالقةً مسافةً، هي مسافة التاريخ، حين تنتقل في تحديدها إلى حدود السؤال الثاني.

بهذا الانتقال تبدأ الذات بالخروج من أوليتها لكي تفتح أفقاً، ولكي تكوّن معنى. وفي هذا ما يُشير إلى أن الحيوان لا تاريخ له لأنه يظلُّ في «أوليّته»، «ملتصقاً» بالطبيعة، غير قادر على الانفصال عنها. بينما الكائن الإنساني يخلق بالضرورة، بضرورةٍ تميزه إنسانياً، مسافة بينه وبين الطبيعة. ومن هنا يكون له تاريخ ـ بدءاً من هذه المسافة ذاتها.

وعلى هذا، لا تكمن «حقيقة» الهوية الإنسانية، في مجرد النشأة والانتماء، وإنما تكمن على العكس، في العمل والصيرورة. فالإنسان لا «يرث» هويته بقدر ما «يخلقها». أو لا يشكّل الجانب الوراثي فيها إلا مستواها «الحيواني ـ الطبيعي»، فالهوية الإنسانية إبداع مستمرّ: يخلق الإنسان هويته فيما يخلق عمله وفكره.

ـ ٢ ـ

الرؤية، المشروع، العمل، الصيرورة: هذه كلها، تحديداً، أشكالٌ من «الخروج» تتجاوَزُ بها الذات حدودها الأولية إلى ما هو خارجها، إلى «الآخر» ـ انفتاحاً، وحواراً، وتفاعلاً.

«الآخر» هو الباب الذي تدخل منه الذات إلى الكون. أو هو، بالأحرى، موجودٌ في الذات ـ في صورة اندفاعٍ، أو تساؤلٍ، أو مُخيّلة. ويرمز فيها إلى حركيتها ـ قلقاً، وتطلّعاً، وإلى تجاوز واقعها في اتّجاه مُمكناتها.

ـ ٣ ـ

أُوضِحُ بدئياً، أمرين:

الأول هو أنني أتكلم هنا على الذات ـ الآخر، نظرياً. وأرجىء الكلام على المُمارسة التاريخيّة. فلهذه شأنٌ خاص.

والثاني هو أنني لا أتكلم على «الآخر» الذي ينتمي إلى ما تنتمي إليه الذات، لغةً وثقافةً ووطناً: «الآخر العربي» للذات العربية، هو كذلك شأنٌ خاصٌّ. وإنما أتكلمُ على الآخر ـ «الأجنبي».

ـ ٤ ـ

منذ ما سميناهُ بـ «عصر النهضة» تعيشُ «الذات» (العربية المُسلمة) في علاقتها مع «الآخر»، وهو هنا، تحديداً، «الغرب»، إشكالاً عَبّرَ عنه كثيرون في صيغٍ مُختلفة ومتنوّعة، وأريدُ هنا أن أعطيه صياغةً حادّة أوجزها، كما يبدو لي أنّ هذه الذات تعيشه الآن، في السؤال التالي:

هل عليّ أنا الذات العربيّة ـ المسلمة أن «أؤسلم» الحداثة (الغرب)، أو «أُحَدثن» (أغربنَ) الإسلام؟

قلتُ: صياغة «حادة» ـ محاولاً أن أذهب بالاحتمالات إلى حدودها القصوى ـ وبالوضوح، تبعاً لذلك، إلى حدوده القصوى.

وهذا سؤالٌ سياسيٌّ في المقام الأول، أو تُمليه العلاقات القائمة بين «العرب ـ الإسلام» و «الغرب ـ الولايات المتحدة» على مستوى المؤسسة السياسية ـ العسكرية ـ الاقتصادية.

وتُمليه كذلك «الثقافة» التي ترتبط بهذه المؤسسة، أو تنتج عنها ـ قبولاً، أو رفضاً.

وهو إذن ينتج حواراً («صراعياً» أو «قتالياً» في معظم حالاته)، لأنه، من جهةٍ، يحصر المسألة الإنسانية ـ الحضارية في مستواها المؤسساتي ـ الحَرْبي، (الاقتصادي ـ العسكري). ولأنه، من جهة ثانية، يحصر العلاقة بين الذات والآخر، في خيارين: إما «النفي»، وإما التحويل إلى «شبيه»، والتبعيّة الكاملة.

هناك في الحالين إلغاءٌ للآخرية.

ـ ٥ ـ

هناك «ذاتٌ» إسلامية ترفضُ الآخر ـ الغرب وتُكفّرُهُ، وترى في كلّ تطور أو تغيّر إسلاميّ، تغرّباً وتبعيّةً ـ وكفراً، كذلك. وهذا يندرج في «المُمارسة» التي أشرتُ إليها قائلاً إنّها شأنٌ خاصٌّ أرجىءُ الكلام عليه.

غير أنني أودّ أن أشير إلى منطلقها في الفهم. فهي تنطلق من مسلّمةٍ هي أن «الذات الإسلامية» كاملةٌ، وخيرٌ كلها. خصوصاً أنها ذاتٌ تزكيها النبوة التي هي خاتمة النبوات. ويفترض إذن أن الحقائق كلها كامنة فيها، ومجسّدة في تعاليمَ خاصة بها، ولا تحتاج إلى أن تأخذ أية حقيقة من خارج هذه التعاليم(*).

ولئن كانت هناك مقاومة دينية (ذاتية) لحدثنة الإسلام وفقاً للصورة التي يطالب بها هذا الآخر ـ الغرب، فلا بد من أن نذكّره ـ لا دفاعاً، وإنما لرؤية الواقع، موضوعيًّا، بأنه لم «يحدثن» هو نفسه ديانته المسيحية كلها، ولا اليهودية كلها. «حدثن» الدولة لكنه لم يحدثن «أديانه» ذاتها ـ في قيمها، وفي علاقاتها. وسمح لها أن تعيش، كما هي، إلى جانب «الدولة»، وهي «أديان» لا تتخطى في أفضل وصف لعلاقاتها مع «الآخر» عتبة «التسامح» إزاءه. ولا تصل قطعاً إلى القول بـ «المساواة» معه. وفي هذا لا تستطيع أن تزعم أنها أكثر «انفتاحاً» من الإسلام. على العكس، كان الإسلام في ماضيه، أكثر انفتاحاً منها، وأكثر تسامحاً.

(*) في تقليد الكشف عن الحقيقة، دينيًّا، أن النفس قادرة على اكتشافها في داخلها، بفضل النور الذي تتلقاه من الله [القديس أوغسطينوس، التصوف العربي ـ الإسلامي]. لكن «النفس الإسلامية» تبدو في التأويل الفقهي المهيمن على نصّ النبوة، أنها ليست إلا «إناء» ـ فراغاً مملوءاً بالتعاليم. ليست، بعبارة ثانية، طاقة خلاقة تتحاور مع الله ونوره، ومع الكون وأشيائه، للكشف عن الحقيقة: النور الإلهي مجمَّدٌ هو نفسه في «تعاليم» و «قوانين» لا تتغير، بل أصبحت هي نفسها حواجز وعوائق تحجب النور الإلهي، وحولت «الذات» إلى كيان لا يفكر، بل يؤمن، ويتلقى دون أن يكون له «رأي من عنده». غير أن هذا كله يدخل في الممارسة التاريخية، وله شأن آخر. لذلك أرجىء البحث فيه، مكتفياً بهذه الإشارة.

- ٦ -

بالنسبة إلي، وبوصفي أصدر، في فهمي الإنسان والكون، عن حدس شعري، لا أرى لي «موقعاً» داخل «المنطق» الذي يوجه، اليوم، «الحوار» القائم بين «العرب ـ الإسلام»، و «الغرب ـ الولايات المتحدة الأميركية». ذلك أنه، في التحليل الأخير، ليس «حواراً» إنسانيًّا ـ حضاريًّا، وإنما هو «حوار» سياسي ـ عسكري ـ إقتصادي.

وأنا أعني بـ «الآخر» بوصفه إنساناً، وإبداعاً إنسانياً حضارياً. بعبارة ثانية، أعني بالآخر بوصفه بُعْداً من أبعاد الذات: بعداً قائماً في «داخلها»، قيامه في «خارجها».

الحدس الشعري هو أساساً، شعوراً وتأملاً ومخيلة، حركةٌ نَحْوَ المخيّلةُ (وسأحصر هنا التمثّل بها) هي خروج من الذات إلى. هي اتجاه إلى ما «يتجاوز» الذات، لكي تستلهمه، وتستضيء به، أو لكي «تدرجه» فيها، بعد أن تتمثله، بشكل أو آخر.

المخيلة، بعبارة ثانية، هي آخرُ منتظرٌ أبداً على عتبة الذات، أكانَ هذا الآخر الطبيعة أو الإنسان، أو كليهما معاً.

إلغاء «الآخر» هو إلغاء لهذا البعد الذاتي الخلاق: المخيلة. أعني أنه، بالتالي، اكتفاءٌ للذات بذاتها، وانكفاءٌ عليها وفيها ـ اجتراراً وتكراراً، واعتداداً بأنها كافية نفسها بنفسها ولا تحتاج إلى ما هو «خارجها».

«الخارج ـ الآخر»، إما أن يذوب فيها، وإما أن يظلَّ «غريباً» عنها ـ أو «أعجمياً»، لكي أستعيد هذه الكلمة ذات الدلالة الكبيرة في فهم «آخرنا» تاريخياً.

وهذه «الأعجميّة» هي ما تنمو، الآن، بوعي أو بلا وعي، قصداً أو عفواً، وما تحاول الهيمنةَ على «الحوار» بين العرب ـ الإسلام والآخر. وتجد هذه «الأعجميّة» ما يدعمها في تأويل، مُفرط في انغلاقيته، لمعنى الرسالة الإسلامية. ويُمكن إيجاز هذا «التأويل» في إفصاحه عمّا معناه أن النبي استقبل كلاماً لم يجيء من المُجتمع الذي عاش فيه، ولا من المُجتمعات الأخرى، المُجاورة أو البعيدة، وإنما جاء من مصدرٍ آخر: الله، ومن مكان آخر: السماء. فهل يحقُّ، إذن، لمجتمع يؤمن بهذا النبيّ وبما قاله أو نقله، أن يتلقّى حقائق آتيةً من مصدر مختلف، ومكان مختلف؟ خصوصاً أن هويّة المؤمن هنا، بدءاً ونهايةً، وجوداً ومصيراً، ترتبط بالكلام المنقول، المقولِ على لسان النبيّ. فالذات هنا، عالمٌ، والآخر، المُختلف عنها، عالمٌ ـ ولا علاقة بينهما.

ومعنى ذلك أن تماثل هذه الذات مع الآخر، إنما هو نفيٌ لها، أي للإسلام ذاته. وفي هذا، إذن ما يُفسّر «رفض» الآخر.

قلتُ: هذا تأويلٌ. غير أنّه التيّار الذي يزداد فعالية شيئاً فشيئاً، ويزداد هيمنةً. لكن من

حسن الحظ أن الإسلام يتّسع لتأويلاتٍ أخرى.

ستزيد في دعم هذا التأويل، اليوم، الظاهرة التي سُمّيت بـ «العولمة». وهي شيء، و «العالميّة» شيء آخر.

«العالميّة» محرّكٌ ودافعٌ من داخل في اتّجاه العالم. فهي تضع الذات في مُستوى العالم، وتضطرّها إلى أن تحدد نفسها، قياساً بالآخر، وعبره ـ لا على الصعيد اليومي، العملي، وحده، وإنما كذلك على صعيد الإبداع والمُخيّلة. ولا تخاف من «العولمة» إلا الذاتُ التي لا «عالمية» لها، أي التي لا إبداع لديها، ولا مُخيلة: الذات التي فقدت طاقاتها الخلاّقة.

وصحيحٌ إذن أن «العولمة» خطرٌ ماحقٌ على هذه الذات. والقلق الذي تثيره «العولمة» في بعض الأوساط الثقافية العربية، يفصح، في المقام الأول، عن الشعور بعدم عالمية العرب، أي بفقرهم إبداعياً، مما سيُتيح للعولمة أن تعمل على «إبادتهم».

وفي هذا الإطار تحديداً لا تكون «العولمة» إلاّ إلغاء لثقافات الشعوب التي لم تعد لديها طاقات إبداعية. لكنّ مثل هذه الثقافات التي لا يُجدّدها الإبداع الدائم في مُختلف الميادين، آيلٌ إلى الزوال، اليوم أو غداً أو بعد غد، سواء تمت العولمة أو لم تتم: ستزول لأنها تُصبح كمثل المُستنقع لا تصب فيه روافد الماء المُبدع المُحيي.

وعلى هذا المستوى يُمكن القول إن خطر العولمة الأول يتمثّل في خلق مجتمع على مستوى الكون لا مكان فيه إلاّ للطاقة الخلاّقة، المدعومة بالطاقة (الماليّة ـ السياسية) التي تُتيح تعميم نتاجها وثقافتها وقيمها على العالم.

ومستقبلنا نحن العرب في هذا المنظور، إستناداً إلى واقعنا وإلى «مشروعاتنا» ـ لا يمكن وصفه بأنه مستقبل «مشرق».

ـ ٧ ـ

كيف أستطيع، بوصفي ذاتاً، أن أدخل مع الآخر، في حوار يكون متكافئاً وخلاّقاً إذا لم أعرف من أنا؟ وكيف أجيب عن سؤال «من أنا؟» ـ و «أنا»، بوصفي عربيّاً، «ضائع»، أو على الأقل، «ملتبس»؟ أعني أن صفتي «العربية» لم تعد إلا «إطاراً». وما أشد وأعنف الصراع داخل هذا «الإطار»! فالخلاف في هذا «الداخل» يصل إلى مستوى «الهوية» ذاتها ـ والصراع في شكله السياسي، على الأخص، يمزق تلك «الصفة»، حتى أنه يكاد أن «يمحوها».

وإذن «أنا» ذو هوية معلقة، أو مرجأة، أو متأرجحة: لا أعرف كيف أعطيها وصفاً. إن قلت: «لبناني» أو «سوري»... إلخ، بمعنى الدولة السياسي، فهو قول يكشف عن الانتماء بالولادة وبالمواطنة، وذلك شيء آخر غير الهوية. وإن قلت: لبناني أو سوري أو مصري أو عربي، بالمعنى «القومي» أو الإنساني ـ الحضاري، فذلك يكشف عن انتماءٍ، أكلت (أو قتلت)

وتأكلُ فيه الأطرافُ بعضها بعضاً.

يبقى أن أقول إن هويّتي هي في اللغة التي أفصحُ بها عن ذاتي. وبما أن هذه اللغة عربيّة، فهويتي الإبداعية والإنسانية عربية، بهذا المعنى اللّغوي، حصراً.

«العربي» بهذا المعنى، كائنٌ لغويّ. وهويته «فردية» ـ أي أنها خاصّةٌ بشخصه، وليست هوية «قومية»، ـ هويّة «أمة» أو «جماعة»، عرق أو جنس. وإنما هي هويّة «فردٍ» بعينه ـ فرد ـ إنسان.

وطبيعيّ أن هذه الهوية «مرفوضة» في «الإطار العربي». فما يُهيمن في هذا الإطار هو القول إن الأمة هي الأساس، وهي القيمة العليا. وليس الفرد ـ الإنسان. والهويّة، بحسب هذا القول، هي التّماهي والانصهار. هويّتك هي أن تتماهى بـ «قبيلتك» التي تنحدر منها، بـ «الشعب» الذي تنتمي إليه، بـ «الوطن» الذي ولدت فيه. وتختلف هذه «القبليّة» وهذا «الشعب» وهذا «الوطن» ـ بحسب اختلاف المنظورات والأيديولوجيات.

هذا القول السائد في هذا «الإطار» لا يُعنى بالتآلف مع المُختلف، وإنما يُعنى بالابتعاد عنه، وإقصائه، ونبذه. غير أنّ نفي الآخر ليس إلاّ شكلاً من أشكال نفي الذات. وهكذا نرى أن «الشعب» في هذا «الإطار» هو، كيفما كانت صفته «القومية»، مجموعة من القوى «المُتنابذة»، مجموعة من «المتنافين»، مجموعة من «الرسالات» و «النّبوّات» التي يكذب بعضها بعضاً.

ليس لهذا «الشعب» إذاً وجودٌ إلا سلبياً: أعني ليس إلاّ مجرّد انتماء بالولادة والمواطنة، ومجرّد أرقام. وهويته الإبداعية مُعطّلة. وحين ينبغ واحدٌ من أفراده، لا ينبغ حقاً، أي لا تأخذ عبقريته إشعاعها الكامل، إلاّ خارج هذا الانتماء بالمواطنة والولادة، في الانتماء الإنساني ـ الحضاري، في كنفِ «الآخر».

ـ ٨ ـ

ليس الآخر، بالنسبة إليّ، مجرّد عنصر للحوار، وإنما هو عنصر تكويني من عناصر الذات. وإذا كانت هويّة الإنسان في فرديته، وكان الإبداع هويّته الحقّة، فإن هذه الهويّة مفتوحة بلا نهاية. وهي أبداً في تعالق مع هويّات الآخر: إنها صيرورة متواصلة. وبقدر ما يكثر انفتاح الذات على الآخر، في شتّى أنواع هذا الانفتاح، فإنّ الهوية تزداد غنىً. وبقدر ما تنكمش الذات، وتتقلص في انتمائيتها ـ نشأةً ومواطنةً، تزداد فقراً.

والمأساة التي يواجهها، اليوم، العربيّ المُبدع الذي تقوم هويّته في لغته، أساساً، هي أنه ليس له إلاّ وطنٌ واحد هو في الوقت نفسه ليس وطناً له.

(برلين، شباط ١٩٩٩)